مسالك القوافل ودورها فى التواصل الثقافى بين طرفى الصحراء خلال القرن 19 (قراءة فى رحلة الولاتى)

محمد المختار ولد السعد

قسم التاريخ

«... إن كل رحلة مكتوبة تعكس ثقافة وهدف واهتمام كاتبها، كما تعكس تطلعاته ونظراته (...) ومشاهداته وما هو قادر عليه من تركيب وتحليل وأخذ وعطاء فى المجالات الحضارية والعلمية والثقافية زيادة على وعيه بظروف الزمان والمكان...».

عبد القادر زمامه: «الرحلة المغربية صلة علم وحضارة» مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس عدد 1986/8، ص: 9.

شكلت مسالك القوافل عبر الصحراء جسور تلاقح حضارى عميق الأثر بين الشعوب الافريقية شمال الصحراء وجنوبها، ونسجت بين هذين الجزأين عرى اقتصادية واجتماعية وثقافية وثيقة على مر الزمن.

وترسخت تلك الجسور الضاربة الجذور فى القدم بفعل المشاركة الفعلية لسكان الصحراء الغربية فى التجارة عبر الصحراء منذ الألف الأولى قبل الميلاد[1] لتعرف، ابتداء من القرن 7 الميلادى، نقلة نوعية بفضل دخول الإسلام إلى المنطقة وما أعطاه من دفع إيديولوجى واقتصادى لاختراق الصحراء وشق السبل عبرها.

---

(1) نيقولا زيادة: «سكان الصحراء الكبرى والسودان الغربى من ابن حوقل إلى ابن بطوطه» الفكر العربى، العدد 51، السنة التاسعة، يونيو 1988، ص: 50.

فقد نشطت تيارات التبادل الحضارى عبر الصحراء بشكل لم يسبق له مثيل فى تلك الفترة الممتدة من القرن 8 إلى القرن 16 الميلاديين، وتعددت المحاور التجارية وعرفت فترات ازدهار وانحطاط تبعا للظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية والأمنية فى المنطقة، ولم يكن دور القوافل السالكة لتلك المحاور مقصورا على نقل الثروات المادية بل حملت معها الرسالة المحمدية والثقافة العربية الإسلامية والتجارب الحضارية لشعوب ضفتى الصحراء فى عملية أخذ وعطاء متجددة فى الزمان والمكان.

ومن نافلة القول التعرض فى هذه العجالة لبنية ودور المحاور الرئيسية الثلاثة الرابطة بين البلدان المغربية ومنطقة السودان الغربى فى الفترتين الوسيطة والحديثة مادام اهتمامنا الآنى ينصب على مسالك القوافل خلال القرن 19 فى المناطق المتاخمة للصحراء بشمال غربى القارة، وبالذات على الدور الذى لعبته فى تعزيز التواصل بين ما يعرف اليوم ببلدان المغرب العربى شمال الصحراء وجنوبها – دون سواها – فى العقد الأخير من القرن 19 [1]. فى وقت فقدت فيه تلك السبل حيويتها الإقتصادية وجاذبيتها بالنسبة لسكان طرفى الصحراء بفعل عوامل داخلية وخارجية لا سبيل للخوض فيها هنا.

وعليه فلنحاول التعرف على المسالك التى ترتادها القوافل عبر الصحراء فى نهاية القرن الماضى ومقاصد سالكيها والدور الثقافى الذى اضطلعوا به من خلال قراءة سريعة فى رحلة الولاتى التى صدرت عام 1990 بتخريج الأستاذ محمد حجى عن دار الغرب الإسلامى ببيروت ومعهد الدراسات الإفريقية بالرباط.

---

(1) كان بودنا أن نتناول الموضوع من خلال رحلتى الطالب أحمد بن اطوير الجنة الودانى التى جرت ما بين 1929 - 1834 ومحمد يحى الولاتى الذى قام برحلته ما بين - 1900 1893 حتى تكون الفائدة أهم غير أن إشعارنا المتأخر بالملتقى وتزامنه مع فترة التهيئة لبدء السنة الجامعية الجديدة، وعجزنا – روغم ما بدلنا من جهود – عن الحصول، فى الوقت المناسب، على نسخة من رحلة الودانى قد حالت دون ذلك.

أولا: الرجل ورحلته:

نكتفى من تعريفنا بالرجل ورحلته بما يفى بالغرض المنشود، وهو ما يستدعى منا التركيز على الجانب المعرفى فى حياة الرجل ومكانته الإجتماعية فى محيطه الضيق قبل انطلاقه فى رحلته الطويلة إلى الديار المقدسة.

1) المؤلف: هو محمد يحى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله (الملقب أبو بن أحمد حاج الداودى)[1] نسبا، المالكى مذهبا، الأشعرى اعتقادا، التجانى طريقة.

ولد بمدينة ولاته[2] الصحراوية الواقعة فى أقصى الشمال الشرقى الموريتانى عام 1259هـ/1843 م وتوفى بها سنة 1330هـ/ 1912م.

وقد ارتبط اسمه بتلك المدينة لشهرتها التاريخية شمال الصحراء وجنوبها كمحطة من محطات القوافل عبر الصحراء ومنارة علم ومعرفة قبل أن يبدأ مسار انحطاطها فى القرن 15م ويصيبها الوهن ويهجرها العديد من سكانها مع نهاية القرن 18 [3].

---

(1) نسبة إلى أولاد داود بن اعروك بن أودى بن حسان، الذين هم إحدى المجموعات الحسانية التى وفدت إلى الأراضى الموريتانية الحالية فى القرن 14 وانتهى بها المطاف إلى الاستقرار فى منطقة الحوض فى ملتقى القرنين 16 و17 الميلاديين.

(2) ولاته: تأسست سنة 1224م على انقاض غانه لمحطة تجارية متقدمة فى التجارة مع بلاد السودان على الطريق الغربى من المحور الاوسط المار بتغازة فتوات. وذاع صيتها التجارى (فالثقافى) فى تلك الفترة إذ نجد أول ذكر لها من خلال النشاط التجارى لأبناء المقرى الذين استقر اثنان منهم بها (عبد الواحد وعلى) فى حين تمركز ابو بكر ومحمد بتلمسان وعبد الرحمن بسجلماسة (نفح الطيب... ج 205/5 - 206). زارها ابن بطوطة أثناء رحلته وأقام بها قرابة خمسين يوما ووصف أهلها ومناحى الحياة فيها. غير أن طريق ولاته سرعان ما تدهور لصالح تنبكتو كما يشهد لذلك السعدى فى كتابه «تاريخ السودان، ولا سيما، ص: 20 - 21.

(3) الساس بن ابو: جمع وتحقيق الإنتاج الشعرى للعلامة محمد يحى الولاتى – م.ع.أ/ نواكشوط 86/ ص: 11.

ويتجلى بوضوح مدى التدهور الاقتصادى والأمنى الذى أصاب المدينة فى الفترة المدروسة من خلال مقارنة سريعة بين ملاحظات ابن بطوطة فى منتصف القرن 14م وما يقوله عنها الولاتى فى النصف الثانى من القرن 19.

فقد تحدث ابن بطوطة[1] عن هذه المدينة بوصفها مركز إشعاع ثقافى المنطقة وبوابة أساسية فى العلاقات مع بلاد السودان بالنسبة للمسلك المرتكز شمالا على سجلماسة وجنوبا على ولاته مرورا بتغازة.

ونوّه بحضور الجاليتين المغربية والمصرية فى هذه المدينة وغيرها من كبريات المدن الخاضعة لمملكة مالى، وهيمنة مسوفه – أساس ساكنى ولاته وقتها – على التجارة الصحراوية سواء من حيث التحكم فى إنتاج الملح وتسويقه أو خفارة القوافل ودلالتها (التكشيف) وتهيئة ظروف الإقامة لأصحابها فى ولاته.

وواضح من رواية ابن بطوطة أن تنوع الحضور البشرى بالمدينة كان مرتبطا بازدهار الحركة التجارية بها وحسن ضيافة أهلها ،وشمول الأمن فى بلادهم، فلا يخاف المسافر ولا المقيم سارقا ولا غاصبا،[2].

ولم تكن صلة أهل ولاته بالتخوم الشمالية للصحراء مقصورة على القوافل التجارية بل كان لأهلها ركبهم السنوى إلى الحج. فقد قال ابن بطوطة[3] بهذا الشأن، منوها بكرم أهل ولاته، ما نصه: «وأردت أن أسافر مع حجاج إيو الاتن، ثم ظهر لى أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم، وكانت إقامتى بإيو الاتن نحو خمسين يوما، وأكرمنى أهلها وأضافونى».

واختتم الرحالة المغربى انطباعاته عن ولاته قائلا: «وبلدة إيوالاتن شديدة

---

(1) ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار – طبعة دار الكتاب اللبنانى، د. ت/ص: 411.

(2) نفس المصدر، ص: 450.

(3) نفس المصدر، ص: 442.

الحر، وفيها يسير نخيلات يزرعون فى ظلالها البطيخ، ماؤهم من أحساءبها. ولحم الضأن كثير بها، وثياب أهلها حسان مصرية. وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال (...)، وأما نساؤهم فلا يحتشمن عن الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات..»[1].

غير أن ذلك الوضع سيتغير بتغير الأوضاع السياسية والبشرية فى المنطقة وما انحر عنه من تحول فى مسالك القوافل عبر الصحراء وتزحزحها نحو الشرق. فقد لاحظ ابن خلدون[2] – مثلا – فى أخريات أيامه أن الطريق الغربى الممتد «من ناحية السوس إلى والاتن قد أهمل لما صارت الأعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت (اقليم توات).

وقد صاحب هذا التزحزح لمسالك التجارة نحو الشرق تألق تنبكتو على حساب ولاته الذى وجد التعبير عنه، على الصعيد الثقافى، فى هجرة العلماء من الثانية إلى الأولى ضمن عملية نزوح واسعة النطاق – على ما يبدو – من المدن الشنقيطية الواقعة على المحور الغربى للتجارة عبر الصحراء وفى ذلك يقول السعدى (ص: 20 -21) «كان التسوق قبل فى بلد بير (ولاته) وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوى الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد: من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلاله وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك. ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا ليلا حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل صنهاجة بأجناسها، فكانت عمارة تنبكت خراب بير...».

يرى محمد بن مولود بن داداه[3]. أن النهضة الحفصية، ابتداء من أبى العباس ((1370 - 1390 قد أحظت قطاع تنبكتو، بينما أدى انحطاط المغرب

---

(1) نفس المصدر، ص: 442 - 443.

(2) عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر ... دار الكتاب اللبنانى 1967، ج6، ص: 118.

(3) Mohammed El-channafi: sur les traces.

المريني ووصول الهجرة المعقلية إلى الصحراء الغربية إلى اضطراب الطرق التجارية الغربية، فنجم عن ذلك انحطاط «الكصور الصحراوية» التي كانت تحياتها مرتبطة بشكل وثيق بالتبادل التجاري: خراب تنيكي في نهاية القرن 16 وإنشاء تكبه، هجرة جزء من سكان شنجيط وتأسيسهم تجكجة في 1070هـ/ 1660م، هجر جزئي لوادان في القرن 18 وولاته حيث تم إنشاء النعمة سنة 1808... كما كان لانهيار الممالك السودانية الكبرى (التكرور، غانه، مالي، الصونغاي) دوره على هذا الصعيد.

وقد بلغت مدينة ولاته - على ما يبدو - قمة تدهورها في عهد الولاتي[1] الذي يصف تردي أوضاعها الإقتصادية والإجتماعية والأمنية، وصفا لا يحتاج إلى تعليق، قائلا: «فتتبين بهذا لكل من له أدنى معرفة بأهل ولاته أنهم بمعزل بعيد عن هذه الأوصاف التي اتفق الفقهاء على اشتراطها في الجماعة التي تقيم الجمعة لأنهم غير قادرين على الدفع عن أنفسهم وأموالهم ولا على نصب الأسواق ولا على إقامة أبهة الإسلام، فهم من قديم الزمان لابد لهم من بدوي ذي قوة يلجأون إليه ويحتمون بحماه وهم الآن يجعلهم الله في حماية أحمد محمود بن المحيميد (1852 - 1884) ولذلك يكونون في أقصى الخوف إذا رحل عنهم وخلى بينهم وبين أهل تكانت تكسر ديارهم ويؤخذ ما فيها وهم ينظرون، ويجردون من ثيابهم وتسبى أرقاؤهم ولا يدفعون عن هذا بمال ولا جاه ولا قوة، وإذا حاولوا الدفع بقوتهم فروا جميعاً وقتلوا ثم أعطوا أكثر مما كان مطلوبا منهم (...) فهذا هو حال أهل ولاته الذي يعرفه الخاص والعام والحاضر والبادي بالعيان والخبر المتواتر...».

لقد عاش صاحبنا يتيما في كنف والدته بتلك الواحة الصحراوية العتيقة وبها تلقى تعليمه في ظل الوضع المأساوي الأنف الذكر.

---

(1) الولاتي: فتوى بشأن بطلان صلاة الجمعة في مسجد ولاته (مخطوط).

وظهرت عليه مبكرا ملامح الذكاء والنبوغ أثناء اشتراكه مع بعض زملائه في دراسة مختصر الشيخ خليل[1]. فتخلى عن الدراسة «النظامية» واعتاض عنها بالتجول بين علماء المدينة والاستماع إلى دروسهم المعمقة ونقاشاتهم مع نظرائهم. واستقطبه بشكل خاص الفقيه سيدى أحمد بن محمد بوكفه الذى يصفه الولاتى «بأنه أعلم أهل ولاته فى زمنه وأعـدلهم»[2]، فتتلمذ عليه أولاد الشيخ عناية خاصة.

واضطر الولاتى أثناء فترة تعلمه إلى العمل لإعالة والدته وأخيه الوحيد، فاختار مهنة نسخ الكتب لتلاؤمهما مع مهمته التحصيلية. وقد عززت ذكاء الرجل وجده ومثابرته ذاكرة قوية، فؤثر عنه قوله «إنه ما قرأ شيئا يريد حفظه إلا حفظه وما حفظ شيئا ونسيه قط»[3].

وهذه الظاهرة التى ستسعف صاحبنا أثناء رحلته، تعتبر سمة مميزة لدى العلماء الشناقطة فى القرون الماضية. ولعل حياة البداوة الظاعنة الطاغية على نمط عيش هذا المجتمع آنذاك، ومحدودية انتشار الكتب وندرة الورق، قد عززت اعتماد الشناقطة الكبير على الذاكرة[4] والشيوع الزائد لظاهرة النظم لديهم، والتباهى بسرعة الحفظ[5].

وما إن بلغ الولاتى العشرين من العمر حتى ولج باب التأليف فى النحو والبيان قبل أن يهتم، ابتداء من الخامسة والعشرين من عمره بالتأليف فى ميادين

---

(1) الساس... مرجع سبق ذكره، ص: 12.

(2) نفس المرجع، ص: 13.

(3) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(4) كانوا يتمثلون بقول القائل:

علمى معـى أينـما يمـمت أحملـه ... فى باطن الصدر لا فى جوف صندوق

إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى ... أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

(5) يقول محمد عبد الله بن احمذيه (ت 1391هـ): «ثلاثة لا يعجز الرجل عنها، الطهارة المائية، وحفظ النص من قراءة واحدة، وقول الحق فى محله». الديوان، ص: 12.

الأصول والحديث والفقه وغيرها من علوم عصره حتى قيل[1] إن مؤلفاته بلغت 110 مؤلف. ولاهتمامه بالفقه وكثرة تأليفه فيه لقب «بالفقيه الذى أصبح فيما بعد علما له»[2] فى منطقة الحوض، واحتل الصدارة فيه فى مجال الإفتاء، ونصبه أهلا المحيميد[3] قاضيا لهم.

ويقول محقق ديوانه أنه كان قوى الشخصية جريئاً «على النهى عن المنكرات والتصدى لاصحابها (...) سريع الانفعال وذا مهارة فائقة فى الجدل والحوار...»[4].

وكان لمزاج الرجل أثره على علاقاته مع علماء بلدته وعلى سلوكه المعرفى أثناء رحلته. فقد دخل محمد يحى فى نزاع حاد مع علماء ولاته عندما نقض حكما لقاضيها أحمد بن عبد المالك الداودى حتى ضاقوا به ذرعا وشكوه إلى أصحاب الشوكة فى المنطقة.

وبلغ الصراع أوجه بين الطرفين عندما أصدر الولاتى فتوى ببطلان صلاة الجمعة فى ولاته بحجة «فقد أربعة من شروط وجوب صحتها عند مالك وأصحابه وهى: المصر والسوق والسلطان والجماعة التى تتقرى بهم قرية أى تستغنى بهم

---

(1) يستفاد ذلك من بيتى ابنه محمد الحسن المنقوشين على ضريحه:

هذا ضريح من به علم الشريعة انتشر

الف فى حياتـــه مائة سفر وعـشر

(2) الساس: مرجع سبق ذكره، ص: 13.

(3) أهل المحيميد: بيت الرئاسة فى مشظوف الحوض، وكان جدهم لمحيميد وابن المختار وابنه المختار تداولا جمع كلمة مشظوف تخليصها من التبعية لإدوعيش فى النصف الأول من القرن 19. وقد تمكن محمد محمود بن المختار بن المحيميد من التخلص من هيمنة إيدوعيش والدخول فى صراعات مع أولا امبارك مما أدى إلى انتقال مجال مشظوف الجغرافى من تكانت إلى الحوض، وبزوال سلطة أولاد امبارك من الحوض سيطر عليه مشظوف سياسيا وعسكريا ولاسيما فى الفترة ما بين 1852 - 1884 قبل أن يصيبهم ما أصاب خصومهم السابقين من انقسامات وصراعات سياسية.

(4) الساس: م. س، 14.

وتأمن بدفعهم عنها...»[1]. وآل به الأمر إلى مقاطعة الصلاة فى مسجد ولاته بحجة احتكار إحدى المجموعات القبلية لإمامته حتى أصبحت وراثية.

ويبدو أن تدهور علاقات الرجل بسراة الفقهاء المتنفذين فى بلدته وتحديهم له، وتردى الأوضاع السياسية والأمنية فى العقد الأخير من القرن 19 [2] بمنطقة الحوض عموما وبالمدينة التى ارتبط بها خصوصا، كانت من بين العوامل الموضوعية التى جعلته يقرر - رغم تواضع حالته المادية - تأدية فريضة الحج والخروج من ذلك الجو الخانق فى رحلة أطال فيها النجعة إلى الديار المقدسة.

2) الرحلة: لم يخرج الولاتى على التقليد المألوف فى الرحلات الحجازية لدى علماء المسلمين عموما وأسلافه الشناقطة على وجه الخصوص من حيث العناية بوصف المسالك والظروف المادية والبشرية لتنقلهم من مكان إلى مكان وما استرعى انتباههم من ممارسات اجتماعية والإهتمام بالمراكز العلمية والدينية والتعرف على العلماء ومشايخ التربية الروحية فى المناطق المزارة والاستفادة ومنهم وممارسة التدريس والتأليف والإفتاء وقرض الشعر وعقد المناظرات...

وكان الولاتى من بين الحجاج الشناقطة القلائل الذين دونوا أحداث رحلاتهم الحجازية وتركوا لنا آثارا تاريخية ثمينة[3].

---

(1) الولاتى: فتوى بشأن بطلان صلاة الجمعة فى مسجد ولاته (مخطوط).

(2) يستفاد من «حوليات ولاته» وفتوى محمد يحى السالفة الذكر والرواية الشفهية المحلية بأن الفترة كانت فترة جفاف ماحق أودى بحياة الكثير من سكان المدينة وهجره البعض الآخر واندلاع حروب قبلية وفوضى سياسية وأمنية وما ينجر عن ذلك كله من سلب ونهب.

(3) ألف الشناقطة الرحلات إلى الحج قديما ونالت بعض حواضرهم الصحراوية شهرتها الحديثة كمثابة ومركز تجمع سنوى لقوافل الحجيج حيث يذكر سيدى عبد الله بن الحاج ابراهيم فى 1205هـ/ 1797م أن ركب الحج كان ينطلق سنويا من شنقيط «فيتعلق به كل من أراد الحج ويحجون من قدروا عليه» ثم يضيف قائلا: «وكان الركب يمشى من شنقيط إلى مكة كل عام ويحج معهم من أراد الحج من سائر الآفاق حتى أن أهل هذه البلاد أعنى من الساقية الحمراء إلى السودان إلى أروان يعرفون أهل المشرق إلى الآن بالشناقطة» (صحيحة النقل ...) . ومع ذلك فإننا لا نجد تدوينا لتلك الرحلات قبل القرن 19 بل إن قلة من العلماء حجوا فى هذا القرن هم الذين دونوا رحلاتهم بدء برحلة الطالب أحمد بن اطوير =

انطلق الرجل من ولاته فى 7 رجب 1311 /14 يناير 1894 لأداء فريضة الحج وعاد إليها بعد رحلة حافلة بالأخذ والعطاء دامت ست سنوات وخمسة أشهر، دَوَّنَ أَحْدَاثَهَا المختلفة (ما عدا شهرين أمضاهما فى طريق الإياب بين أروان وولاته) بأسلوب سردى ووفق تسلسل اكرونولوجى دقيق منذ خروجه من ولاته فى رفقة من أولاد بله[1] فى 14 يناير 1894 إلى دخوله مدينة أروان فى 6 من شوال 1317/ 8 يناير 1900 عائداً إلى مسقط رأسه.

وقد تناولت فى هذه الرحلة المعروفة بإسمه طرق سيره برا وبحرا ومحطات توقفه والمسافات الفاصلة بينها زمنيا ومدد إقامته فى كل محطة وأسماء وطبيعة المجموعات والأفراد الذين التقى بهم وما كان معهم من شأن ونوعية الضيافة التى حظى بها فى حله وترحاله، وما قام به من نشاط علمى ودينى أثناء توقفه فى المراكز المزارة. وقد طغى هذا العنصر الأخير على الرحلة التى هى فى الواقع تأليف موسوعى، ينم عن سعة ثقافة الرجل العربية الإسلامية، نالت فيه العقائد وعلم الكلام والفقه والتصوف الحظ الوافر.

ويكفى للتأكد من ذلك أن نعرف بأن رواية أحداث الرحلة نفسها لا تمثل سوى 14٪ من النص المطبوع (45 صفحة) الذى حذفت منه أربعة نصوص عبارة عن مؤلفات صغيرة مستقلة بذاتها، فى حين استحوذت الفتاوى والأنظام والمقطوعات الشعرية التى كتبت أثناء الرحلة على 86٪ من (338 صفحة).

ومع ذلك فإن الرحلة تقدم معلومات تاريخية واقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية هامة عن المناطق والحواضر العربية المزارة فى المغرب والمشرق. فهى تلقى بعض الضوء على واقع اثنتين من أهم محطات القوافل الصحراوية التقليدية

=الجنة والتجانى بن بابه فى النصف الأول من ذلك القرن، مرورا برحلة الشيخ ماء العينين (89 -1859) والبشير بن امباركى (88 - 1889) ومحمد فال بن بابه (88 - 1889) وانتهاء بالولاتى.

(1) إحدى القبائل الحسانية القاطنة بمنطقة الحوض الشرقى، المنحدرة من بّله بن امحمد بن داود بن امحمد بن عثمان بن مغفر بن أودى بن حسان.

فى نهاية القرن 19 (تشيت – شنقيط) وأحياء البدو الظاعنين فى الصحراء وانتماآتهم القبلية، والحركة العلمية والعمرانية فى منطقة السوس الأقصى وأصحاب النفوذ فيها من أمثال أسرة أهل بيروك التكنية فى اكليميم، وآل الشيخ احمد بن موسى السملالى بتازرولت، وانطباعاته عن بلاط السلطان المغربى عبد العزيز (1894 - 1905) وكبار رجال المخزن أنذاك، وزعماء الطريقة التجانية فى كل من الرباط ومراكش والصويره.

وتناول المؤلف زاوية سيد ابراهيم الرياحى التجانية بتونس والحركة العلمية وكبار العلماء والمفتين فى هذا البلد من أمثال الشيخ سالم ابو حاجب ومفتى باش حسين وعلال النيفر، والحاج الحسن الازغلى وسيدى محمد الهادى بن سيدى زروق، وسيد محمد السنوسى بن عثمان، والشيخ سيدى محمد الطيب النيفر... وما كان له معهم من صلات علمية وما اتحفوه به من كتب وأموال. كما استعرض الولاتى النشاط العلمى والثقافى المتميز بالقاهرة والاسكندرية وازدهار حركة الطباعة والنشر وقتها بذلك البلد وما كان من صلة بالأوساط العلمية فى مصر وما اتحفوه به من كتب.

أما فى الحجاز، الذى هو الهدف من الرحلة، فقد استحوذت على اهتمام الرجل مناسك الحج والعمرة وزيارة الروضة الشريفة والبقيع وأحد وغيرها من مزارات المدينة.

وقد وظف الولاتى فى هذه المواقف كلها ذاكرته القوية فتتبع فى أقواله وأفعاله ما جاء فى القرآن والسنة وإجماع السلف الصالح مما جعل الأستاذ محمد حجى[1] يقول بأن «هذا القسم من الرحلة حرى بأن يطبع على حدة كدليل للحج السنى»[2].

---

(1) الرحلة الحجازية: م. س، ص: 11.

(2) قام البشير بن امباركى بالشئ نفسه فى رحلته الحجازية التى قام بها سنة - 1889 1888م، وحققت بالمدرسة العليا للأساتذة فى نواكشوط سنة 1982.

لكن مهمة صاحبنا لم تكن – على ما يبدو من رحلته – مقصورة على تأدية فريضة الحج فقط، وإنما كانت لديه مهام أخرى.

وإذا كانت تلك المهام تبدو لنا فى الأساس مهام ثقافية، فإنه يتعين علينا استنطاق النص لإبراز مضامينه التاريخية الكاشفة عن بعض مظاهر التواصل الثقافى عبر الصحراء فى نهاية القرن الماضى.

ثانيا: المضمون التاريخى للرحلة ومنزلة البعد الثقافى فيها:

إن أول ما يسترعى انتباه قارئ رحلة الولاتى هو الغياب شبه التام للمعطيات الاقتصادية والانطباعات الاجتماعية والسياسية عن المناطق المزارة خلافا لرحلات الفترة الوسيطة بل وحتى لرحلات بعض معاصريه من الشناقطة من أمثال ابن اطوير الجنة ومحمد فال بن بابة (1).

فقد أقام الولاتى – مثلا – فترات طويلة نسبيا بكبريات «الموانئ» الصحراوية جنوبا وشمالا (تشيت – شنقيط – اكليميم – إبليغ – الصويره) ولم يورد أية ملاحظة عن مصادرها الاقتصادية أو حركتها التجارية الداخلية والخارجية فى وقت كانت تسترعى فيه الانتباه لا بفعل حركتها الداخلية فحسب وإنما كذلك بفعل ازدياد اهتمام المؤسسات التجارية الأوربية، المتمركزة على السواحل، بالمنطقة عموما، وبمنطقة السوس خصوصا، وانعكاسات ذلك عليها اقتصاديا وسياسيا.

أونستغرب مثل هذا الموقف من رجل لم يألف التنقل والأسفار ولم تستهوه

---

(1) لقد كانت ملاحظات الرجلين أدق وأشمل من ملاحظات صاحبنا. فابن اطوير الجنة قد وصف – فيما وصف – أحوال بلاده الإقتصادية (الغلات، الاتاوات...) والسياسية لملك المغرب، وحاول أن يعلل له أسباب الركود العلمى فى المغرب أنذاك، ووصف المظاهر العمرانية لبعض المدن المزارة (تيوت – الصويره...)، ومظاهر الاحتفالات الدينية بالمغرب، والخصوصية اللغوية لدى المجموعات الشلحية فى منطقة السوس.

أما ابن بابه فقد استرعى إنتباهه وسائل النقل الجديدة (الباخرة – القطار) وضرورة استخدامها رغم تحكم «النصارى فيها»، والظاهرة الاستعمارية فى السينغال والجزائر ومصر، وتردى الأوضاع العامة فى مصر وفى الحجاز خاصة.

التجارة ومرابيحها[1] وعاش جل حياته بين الكتب يطالع ويستنسخ أو يؤلف ويفتى ويقضى؟ إنه لمن المنطقى أن يتجاهل الولاتى الحركة الاقتصادية وآلياتها التى تحكمها فى تلك المدن مادامت لا تدخل فى دائرة اهتماماته الماضية أو الآنية. فقد كانت مشاغل الرجل وهمومه معرفية فى الاساس. وهذا ما سيتضح من استعراضنا للمعطيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للرحلة.

1- المسالك والمسافات:

سلك الولاتى فى ذهابه من مسقط رأسه إلى الصويره مسلكا مألوفا لدى القوافل منذ الفترة الوسيطة وهو الطريق الأوسط من المحور الغربى المعروف «بالطريق اللمتونى» الذى هيمن على المبادلات عبر الصحراء فى القرنين 11 و12 الميلاديين بفعل عوامل أهمها تفاعلات الثورة المرابطية ليتراجع لصالح المحور الاوسط الرابط بين النيجر وتلمسان عبر توات فيما بين ق 13 و16م، قبل أن يبدأ مسار انتعاشه (المحور الغربى) مع بداية القرن 17 ويظل صلة الوصل الأساسية عبر الصحراء بالنسبة لبلاد شنقيط حتى بداية القرن العشرين.

فقد انتقل من ولاته إلى آغريجيت ومنها إلى تشيت فآغريجيت وشنقيط التى توجه منها إلى وادنون «الفيافى والمفاوز الخالية من العمران»[2]، حتى وصل إلى اكليميم، ومن هذه الأخيرة توجه إلى «الغرب»[3] فمر بقرية تكانت، فايفران، فمجاط، فاياليغ، عاصمة تازوالت، التى أصبحت «منذ حوالى 1850 المكان الرئيسى للمبادلات التجارية بين المنتجات الصحراوية، ومنتجات السوس وتلك

---

(1) الساس: م. س، ص: 24.

(2) الولاتى: الرحلة، ص: 87.

(3) يقصد المؤلف هنا المغرب الأقصى لأن تسمية «الغرب» هى التسمية التى كانت شائعة أكثر من غيرها لدى الشناقطة. ثم إنه يعبر ضمنيا عن انتهاء بلاده بخروجه من وادنون وساكنيه الذين يعتبرهم جزءا من وطنه الضيق («اتراب البيظان») ذى الخصائص اللغوية والسمات الحضارية المتميزة.

القادمة من أوروبا عبر ميناء الصويره،[1]. وقد ارتحل من إيليغ إلى الصويره لينهى الجزء الصحراوى من رحلته الذى استغرق سنة وعشرة أشهر بسبب المرض وطول الإقامة فى بعض المراكز القروية المزارة[2]، و،لكثرة المقام فى البوادى،[3]. وهنا تكمن الصعوبة فى تحديد المسافات الفاصلة بين تلك المحطات مادام النص لا يسعفنا فى معظم الأحيان بالتمييز بين فترات السير وفترات المقام. مع ذلك تمكنا بصعوبة من تحديد المسافات بين معظم المحطات انطلاقا من النص نفسه.

فقد استغرق السفر بين ولاته وآغريجيت 10 أيام، وبين شنقيط واكليميم 28 يوما، ومن اكليميم إلى إيفران يوما ونصف يوم، وبين إيفران وإيليغ 4 أيام، ومن إيليغ إلى الصويره 27 يوما.

وينبغى التنبيه إلى أن المسافة ما بين ولاته واكليميم قد قطعت على الجمال، فى حين كان التنقل من اكليميم إلى إيليغ بالبغال، ومن هذه الأخيرة إلى الصويره على الحمير على ما يبدو[4].

وابتداء من الصويره ينتهى الجزء الصحراوى من رحلة الذهاب، لتبدأ رحلة البحر ذات المسالك والمراكب المختلفة التى تثير الفضول العلمى لدى الصحراوى رغم عدم ألفته بها. وامتدت هذه الرحلة عبر مراسى وموانئ الصويره، وآسفى، والدار البيضاء، والرباط، وطنجة، فالجزائر، وتونس، وبرسعيد، والسويس وجدة..

---

(1) Paul Pascon: la Marson d'rligh et uhistoire Socialede Tazerwalt Ṣmer. rabat 1983.

(2) أقام على سبيل المثال 8 أشهر بتشيت، وشهرين فى شنقيط، وثلاثة أشهر فى اكليميم، وشهرين فى إيليغ

(3) الولاتى: الرحلة الحجازية، م.س، ص: 77.

(4) كان المؤلف يحدد بالإسم وسيلة تنقله، أما فى هذه المرة فقد عمم عندما قال: «... أكرى لنا دواب لقوم من حاحا»، وهذا ما يوحى بأنها دون مستوى سابقتها خاصة بالنظر إلى طول مدة السفر بين إيليغ والصويره.

وقد دامت هذه الرحلة حوالى 15 يوما من السفر، حيث قضى 8 أيام بين الصويره والرباط منها أربع وعشرون ساعة فقط فى السفر، ويوما بين الرباط وطنجة. وليلتين ويوما بينها والجزائر، ونفس المدة بين الجزائر وتونس. ولم يحدد الرحالة مدة الرحلة بين تونس وبورسعيد، فى حين قضى ليلة بين هذا الأخير والسويس، وأربع ليال بين السويس وجدة حيث ستبدأ «رحلة» برية قصيرة إلى مكة والمدينة فينبع تستغرق ستة أشهر.

وتبدأ رحلة العودة بحرا من ينبع إلى جدة بواسطة قارب شراعى («فلكا ذا أقلاع»)، ليأتى دور الباخرة بين جدة والسويس. ومن السويس سيتوجه بالقطار (بابور البر) إلى الاسكندرية ثم إلى القاهرة حيث اندهش الولاتى – هذه المرة – لسرعة القطار حين قال: «... فسار بنا ثلاث ساعات ونصف ساعة قطع فيها مسافة سبع مراحل للإبل، وهى المسافة التى بين إسكندرية ومصر (القاهرة)»[1].

وعاد الولاتى أدراجه إلى الاسكندرية التى سافر منها إلى ملطة، فتونس، ومرسيليا ، وطنجة، فالدار البيضاء حيث ستنتهى رحلة العودة البحرية، وقد استغرق السفر بين الاسكندرية وملطة أربعة أيام وبينها وتونس يومين لبطئ سير القارب، وليلتين بين تونس ومرسيليا، و5 ليال بينها وبين طنجة وليلة بين طنجة والدار البيضاء.

وكان السفر على البغال من الدار البيضاء إلى الرباط، فمراكش، والصويرة، وتازروالت واكليميم وبعد مقام عام وشهرين فى اكليميم، توجه الولاتى وأسرته على الإبل عبر الطريق الشرقى من المحور الغربى إلى تيندوف التى استغرق السفر إليها 10 أيام وأقام بها عاما وشهرا.

ومن تيندوف توجه إلى ولاته عبر أروان وتنبكتو دون إعطاء معلومات تمكن من تحديد المسافة التى قطعها بين كل منهما.

---

(1) الرحلة الحجازية، ص: 269.

وبذلك أنهى الولاتى رحلة شاقة ومكلفة لولا سمو مقاصدها وما لمسه أثناءها من مشاعر أخويه وروح تضامن وتآزر اجتماعيين.

2- المعطيات الاقتصادية والاجتماعية:

يمكن اعتبار هذا العنصر من أقل العناصر حظا فى الرحلة ولاسيما ما يتعلق بالمعطيات الاقتصادية، سواء تعلق الأمر بالإعداد المادى للرحلة نفسها أو بالمعلومات عن الحياة الإقتصادية فى المناطق المزارة.

فلم يحدث الكاتب بصفة ملموسة عن ما أعد من زاد لهذا السفر الطويل، واكتفى بالقول، أثناء وجوده الثانى فى آغريجيت، بانه انشغل عن اتمام قصيدته فى مكفرات الذنوب «لاجل مهمات السفر»[1]. ويقول محقق ديوانه[2] أنه قرر تأدية فريضة الحج بوقت قصير بعد عودته من وفادة[3] إلى أحمد بن الحاج عمر الفوتى الذى أهداه «سلسلة ذهبية تزن 100 مثقال وكما من الملابس النفيسة والبضائع». كما اصطحب الولاتى معه أمتين فى رحلة الذهاب الصحراوية لا نستبعد أن يكون قد استعان بثمنهما فى السوس على أعباء ما تبقى من الطريق وكلفها المادية المتعددة. وإذا كنا لا نجزم بذلك، فإن تصريحه[4] بتركهما عند الحاج الحسين فى إيفران وعدم مرور الولاتى به فى طريق عودته - حيث توجه من الصويره إلى إيليغ فاكليميم مباشرة - يحمل على الاعتقاد بذلك.

وسواء كان قد تزود للسفر أم لا، فإن اعتماده كان - على ما يبدو - على إحسان وكرم ضيافة مزوريه فى مختلف محطات الرحلة تقريبا. ولذا حرص على

---

(1) الرحلة، ص: 77.

(2) الساس: م. س، ص: 25.

(3) سافر محمد يحى ضمن وفد من الوجهاء بعثه أهل ولاته إلى هذا الأمير لفك حصار كان قد فرضه على بيع الزرع لهم بسبب موالاتهم لكنته الذين كان فى حرب معهم، وسبب ذلك الحصار أضرارا لأهل ولاته الذين كانوا يعانون من جفاف ماحق.

(4) الرحلة، ص: 103.

رد الجميل لهم، فرأيناه فى كل مرة ينوه بهم ويتفنن فى وصف أوجه إكبارهم له وإحسانهم إليه، بل وحتى فى تحديد الوجبات المقدمة له – ولاسيما فى المنطقة الصحراوية – من لبن ولحم، وكسكس وعصيد، وقمح وشعير، وأرز، ودهن، وتوابل، وقوالب وشاى. ومن شأن التفصيل فى هذا الجانب غير المألوف لدى الرحالة الشناقطة أن يساعد المؤرخ وعالم الاجتماع فى دراسة نمط عيش سكان المنطقة أنذاك وعاداتهم الغذائية.

كما تناول الولاتى تكاليف النقل البرى والبحرى وقتها بين بعض المحطات، وأنواع العملات الموجودة فى السوس وتيندوف وأرواد فى نهاية القرن الماضى. فقد كانت كلفة نقله وابنه محمد الحسن بين طنجة وجدة 25 ريالا حسنية، فى حين كلفهما النقل بين مراكش والصويره عشرة اريالات، ونقل عشرة أحمال بين تازروالت واكليميم 20 ريالا.

أما تنوع العملات فقد تناوله فى أحد أجوبته عن الأسئلة التى وجهها إليه أحمد يكن بن محمد المختار ابن الأعمش الجكنى فى تيندوف، حيث أفرد فتوى مطولة حذفت – رغم أهميتها التاريخية – من النص المطبوع قال فى بدايتها أنها تدور حول «الحكم الشرعى فيما جرى به العمل فى المشرق والمغرب من التفاضل بين السكك فى بيع الفضة بعضها ببعض تبعا للقانون الرومى الذى اصطلح عليه أجناس النصارى وأجروه فى (بلاد) المسلمين»...[1]. ولا تؤكد هذه الشهادة التغلغل البضاعى الأوربى فى المناطق المذكورة فحسب بل الهيمنة النقدية الاوربية فيها كذلك.

وقد حدد فى هذه الفتوى أنواع العملات الأجنبية والمحلية فى كل من السوس وتيندوف، بينما أوضح بأن أزواد لا توجد به سوى السكة الفرنسية، وجند معارفه وذاكرته القوية لدعم رأيه القائل بأن «التفاضل بين السكك (...) فى المبادلات

---

(1) الولاتى: فتوى حول التفاضل بين سكك الفضة (مخطوط).

وفى قضاء الدين خرق لإجماع المسلمين ومخالفة للكتاب وتقليد لقانون النصارى...»[1]. وأعطى بعض المعلومات عن قيم التبادل بين هذه العملات عندما قال: «... فبان لك أيها الناظر أنما جرى به عمل الناس اليوم من إبدال الريال من سكة فرانصيص بريالين سوى ربع من سكة زابيل(؟) هو ربا الفضل المحرم إجماعاً...»[2].

أما معلوماته عن الجانب الاجتماعى فأشد شحاحة، وما تجدر الإشارة إليه فيها هو التوزع المجالى للقبائل الصحراوية فى المنطقة التى شملتها الرحلة. فقد ذكر - على سبيل المثال - تمركز أولاد بله فى آغريجيت ونواحيها، وتركبة سكان تشيت الأساسية (الشرفاء، أولاد هند بن مسلم)، وكثرة الأحياء البدوية بين آغريجيت وشنقيط، وانتشار قبائل الركيبات ما بينها ووادنون ودرايتهم بمسالك تلك المنطقة، وهيمنة تكنة على منطقة وادنون بزعامة آل بيروك، ووجود تجكانت بتندوف.

وما يسترعى الانتباه أن الولاتى لم يشعر بأية غربة اجتماعية أو ثقافية أثناء رحلته الطويلة فى مختلف المناطق العربية المزارة ولاسيما فى المناطق الحافة للصحراء التى أقام فى العديد منها مددا طويلة نسبيا وشارك أهلها منازلهم وأرزاقهم ووسائل اتصالهم وهمومهم المعرفية ومشاغلهم الفكرية.

3- المعطيات الثقافية فى الرحلة:

لقد شغل الجانب الثقافى الحيز الأكبر فى رحلة الولاتى الحجازية حتى كاد يستحوذ عليها نظرا لنزعته المعرفية ومنزلته العلمية وسعة يده فى الكتب وكثرة الإستشكالات التى وجهت إليه. وإذا كان المقام لا يتسع للتفصيل فى نشاطه الثقافى أثناء الرحلة، فإننا سنحاول إبراز أهم معالمه مركزين على ما قام به فى منطقة المغرب أكثر من غيرها.

---

(1) راجع الرحلة من ص: 325 - 352.

(2) ابر اطوير الجنة الرحلة (مخطوط).

أ- الإفتاء: شغلت الفتاوى حيزا كبيرا من رحلة الولاتى نظرا لكثرة الأسئلة التى وجهت إليه أثناءها والتى أجاب عنها باستفاضة تنم عن سعة معارفه وطول نفسه فى الكتابة بحيث كان العديد من تلك الإجابات قابلا لأن يكون كتابا مستقلا.

فقد أصدر الولاتى خلال الرحلة واحداً وثلاثين فتوى فى مجالات متعددة كالفقه، والتصوف، وعلم الكلام، والأصول، واللغة والتفسير، وقد تصدر الفقه تلك القائمة باستحواذه على 13 فتوى، يليه التصوف (8 فتاوى)، فعلم الكلام (4 فتاوى)، وأصول الفقه واللغة والتفسير (فتوايان فى كلا منها). أما من حيث التوزيع الجغرافى فإن منطقة المغرب قد نالت الحظ الأوفر منها (24 فتوى) فى حين أصدر فتوايين فى مصر وأربعة فى الحجاز.

فقد أفتى علماء تونس ببطلان إثبات رؤية الهلال بالتيلغراف، وبشأن حكم القيام عند تلاوة الورد، فى حين تناولت فتاويه لأهل تيندوف حكم التفاضل بين سكك الفضة فى المبادلات وقضاء الدين، وزواج العبد بأربع نسوة، وصدقة من أحاط الدين بماله، وتعريف علم الكلام وعلوم الفلسفة.

وتناولت فتاويه الـ 17 فى المغرب الأقصى قضايا مثل صلاة الجمعة فى مسجدى اكليميم القديم والجديد التى سبق وأن شغلت باله فى مدينة ولاته، والتفسير، واللغة، وعلم الكلام والتصوف. وعلى هذا الصعيد الأخير طغت نزعة الولاتى الفقهية السنية على إنتمائه الطرقى، فحمل بشدة على بعض الممارسات الصوفية التى يراها منافية للسنة (الذبح على قبور الصالحين والاستغاثة بهم، حقيقة اللوح المحفوظ وجواز رؤيته والأخذ منه عند بعض المتصوفة، الإكباب على جمع المال ودعوى الاطلاع على الغيب ولبس الخرق، والرقص والتغنى فى حضرات بعض المتصوفة...)[1]. وهنا نجد قاسما مشتركا بينه وبين رحالة

---

(1) يتجلى ذلك من خلال بعض الناس التورد على التعلم كما فى قول محمد بن حنبل (ت: 1302هـ/ 1335):

شنقيطى آخر هو الطالب أحمد ابن اطوير الجنة الذى استنجد به أهل بنغازى ضد بعض مبتدعتهم فتصدى لهم وكتب كتابه «فيض المنان فى الرد على مبتدعة الزمان»[1] الذى هاجم فيه الفرق المبتدعة التى اتخذت دينها لهوا ورقصا وادعت رؤية النبى ﷺ وحضوره معها اثناء حفلات الذكر.

وقد أطلع الوادانى السلطان مولاى عبد الرحمن على هذا الكتاب أثناء مروره بالمغرب فى طريق العودة فوظفه فى محاربة الزوايا البدعية – ولاسيما زاوية الشرادى بأحواز مراكش – وأمر بتدريسه يوميا بجامع القرويين رغم معارضة بعض متصوفة فاس له ولصاحبه وتربصهم به الدوائر.

ويجد الرجلان نزعة سيئة صارمة كانت سائدة على مستوى العلماء الشناقطة فى القرنين 18و19، بمن فيهم المتصوفة، لأن التمذهب الطرقى لديهم نشأ فى أحضان الفقه وكان دخول دائرة التصوف يتطلب معرفة مسبقة بالأحكام الشرعية[2].

ومن هنا كان انتشار الطرق الصوفية فى الصحراء الشنقيطية على يد صفوة من العلماء وفروا لها المشروعية الدينية والاجتماعية. وهذا ما يفسر فى نظرنا تحامل فقيهنا التجانى الطريقة على ادعاء بعض المتصوفة رؤية اللوح المحفوظ والأخذ منه، والرقص والتغنى فى حضراتهم وغير ذلك من الممارسات التى ابتدعها مدعى التصوف الجاهلين بأحكام الشرع.

- يا خائضين بحور العلم مسألة ... عنها أجيبوا بأفهام ركيات
عن اشتغال شباب العصر جلهم ... عن العلوم بأوراد سنيات
أهذه منة فى الدين نشكرها ... أم هى فى ديننا إحدى المصيبات؟

(الديوان، ص: 90).

(1)

(2)

ولم يقتصر عطاء الولاتى على إصدار الفتاوى، بل مارس التدريس أثناء الرحلة فى أكثر من مكان.

ب- التدريس: حرص صاحبنا على أن يفيد من معارفه الواسعة، فمارس التدريس فى خمس من محطات توقفه هى «آغريجيت» و«مجاط» و«الرباط» و«المدينة المنورة» و«مراكش».

فقد أخذ عنه فى آغريجيت مضيفه الفقيه مولاى محمد المهدى بن مولاى ابراهيم علم مصطلح الحديث وورقات إمام الحرمين فى أصول الفقه وشرح الولاتى عليها.

أما فى مجاط باقليم السوس، فقد وجد الولاتى المدعو سيدى أعلى بن عبد الله «يدرس علم البيان والمعانى لبعض طلبته وهو لا يجيدهما» فأصلح له الولاتى ما اختل عليه، ولم يجد المجاطى حرجا فى ذلك بل أقبل إليه - على حد تعبير الولاتى - «بدرسه وصار يتعلم هو وطلبته منا على المعانى، فتعلموا منه ما أمكنهم تعلمه فى تلك المدة (16 ليلة)»[1].

وتعكس هذه الحادثة تباين المستوى الثقافى للرجلين - بل ومنطقيتهما آنذاك - الذى سبق للسلطان مولاى عبد الرحمن أن عبر عنه بحرارة أثناء حديثه مع ابن اطوير الجنة فى مطلع الأربعينات من القرن 19 [2].

وفى الرباط، درس الولاتى على مدى خمسة أشهر علم البيان والأصول والفقه الفقيهين من إخوانه فى الطريقة التجانية هما سيدى عبد الله التادلاوى وسيدى محمد آب الأمين، فأخذا عنه فى الفقه كتابه المسمى «منبع الحق والتقوى»، واستنسخاه وكتبا أخرى للمؤلف، وفى علم البيان، «تلخيص المقريزى»، وفى الأصول «جمع الجوامع» للسبكى.

---

(1) الولاتى: الرحلة، ص: 103.

(2) ابن اطوير الجنة: «رحلة المنى والمنة» صفحة 10 من مخطوطة المعهد الموريتانى للبحث العلمى رقم: 2722.

وبعد فقيه مجاط وتلامذته وفقيهى الطريقة اليتجانية بالرباط، يأتى دور طلاب المدينة المنورة الذين أخذوا عن الفقيه الشنقيطى على مدى أربعة أشهر موطأ الإمام مالك و«عقود الجمان» للسيوطى وورقات إمام الحرمين.

ودرس الولاتى فى الإياب بمراكش شمائل الترمذى وشفاء عياض لعبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن ابن عم السلطان والفقيه أحمد محمود بن سيدى صالح، و«جماعة من أفاضيل التجانيين»[1] . ولم يشغل الإفتاء والتدريس الحاج الولاتى عن المناظرات العلمية – المولع بها أصلا – التى شكلت محورا من محاور نشاطه الثقافى خلال الرحلة.

جـ– المناظرات العلمية: كانت أهم المناظرات التى أجراها الولاتى مع نظرائه فى المشرق والمغرب مناظرته مع الفقيه محمد بن العربى الأدوزى (1833 – 1912) فى إيليغ[2]. فقد ورد على الولاتى أثناء إقامته بإيليغ عند سيدى محمد بن سيدى الحسين أو هاشم السملالى، سيدى محمد بن العربى الأدوزى وسأله عن مسائل أربعا تنم عن فضول صاحبها المعرفى منها:

– هل لمن قلده العوام أن يجريهم على مشهور مذهبه أو أن يرخص لهم بما يناسب حالهم لأنهم لا مذهب لهم؟

– هل تسمية محمد يحى مركبة تركيب مزج من علمين، وما مدى اطراد ذلك؟

– هل لمن أجاز شراب الخمر وجه شرعى؟

وقد أجاب الولاتى عن هذه الأسئلة بوضوح واقتضاب غير مألوفين لديه، وحدد فى جوابه عن السؤال الأول نظرته للمفتين فى عصره ومراتب العلماء ففقال بأن «أهل الإفتاء فى عصرنا هذا كلهم عوام فى عرف الشرع لا حظ لهم من النظر

---

(1) الولاتى: الرحلة، ص: 352.

(2) عالم سوسى من أسرة عالمة له مؤلفات عدة، منها «صخرة العصر على بعض أهل العصر» الذى رد به على محمد يحى الولاتى – أنظر الرحلة، ص: 104 . الهامش 3.

فى الادلة الشرعية، فلا يرى فيهم مجتهدا فى المدهب ولا فى الترجيح، وإنما فصارى (هَم) أحدهم أن يكون حافظا لفروع المذهب أو جلها بالقوة فقط، أو يحفظ بعضها بالفعل وبعضها بالقوة، عالما بمطلقها ومقيدها وعامها وخاصها ويجملها ومبينها، وله ملكة يقتدر بها على تطبيق الكليات على جزيئاتها، فينزل الفرع الكلى على صورة الواقعة الجزئية الخارجة بعد سبر أوصافها وتمييز الطردى منها الذى لا يثمر فى الحكم من المعتبر وهو الذى يثمر فى الحكم وجودا وعدما. فهذه المرتبة هى مرتبة العامى فى اصطلاح العلماء، وهى أدنى مراتب العلماء، وصاحبها محجر عليه لا يجوز له الإفتاء ولا القضاء إلا بمشهور المذهب أو ما به العمل، ولا يجوز له الإفتاء بالضعيف اتفاقا...»[1].

وما إن تلقى الأدوزى الولاتى حتى استفسره من جديد عن:

- الأشياء التى عرف النبى ﷺ بها أنه نبى أبعلم؟ أو بحس؟ أو بوجدان؟

- كيف علم العاقل أنه عاقل؟ أبعقل آخر عرف عقله؟ أم بغيره؟

ورغم اقتناع الولاتى، منذ البداية، بأن أسئلة زميله السنوسى أسئلة «تثبت» فى ظاهرها و«تعنت» فى باطنها وأن «السنة أهل العلم وأقلامهم مصونة عن السؤال عما لا طائل تحته»، فقد رد عليها الواحد تلو الآخر بهدوء ودونما مماحكة أو مواربة. غير أن ذلك لم يمنع الأدوزى من المضى فى فضوله العلمى ويعطى دفعا جديدا للمناظرة، فينهال «بصخرة العصر....» على مناظرة ويعترض على جوابيه عن السؤالين الأخيرين أحد عشر اعتراضا.

ويأتى دور الولاتى ذى المزاج الحاد والنفس الطويل فى الحوار والمناظرة، فيكتب ردا طويلا على تلك الاعتراضات تحدد مقدمته التالية نبرته ومنهجه:

«فلما وصل هذان الجوابان إلى محمد بن العربى الأدوزى اعترض عليهما أحد عشر اعتراضا كلها باطل لا أصل له، وإنما هى تخبط ورمى فى عماية

---

(1) الولاتى؟: الرحلة، ص: 105 - 106

وضرب فى حديد بارد وتكلم فيما لا علم له بمدلولاته، فأجبت عن اعتراضاته كلها تتبعتها كلمة كلمة بالنقض والإبطال بالأدلة الشرعية النقلية التفصيلية والأدلة الكلية الإجمالية والقواعد الشرعية القطعية لا بالأدلة العقلية ولا بالأدلة العادية ولا بالكشوفات ولا بالمرائى والخوارق ولا بالإلهامات»[1].

وإذا كانت نبرة هذه المناظرة قد حدت فى النهاية، فإن الوضع سيكون مغايرا بالنسبة لنقاشات الولاتى مع العلماء الآخرين الذين التقى بهم فى باقى مراكز الإشعاع الثقافى بالمغرب وتونس ومصر.

د- الاتصال بالمراكز العلمية ورجال الفكر واقتناء الكتب: لقد وظف الولاتى إلى حد كبير رحلته فى الاتصال بمراكز الاشعاع الثقافى بالمناطق المزارة والتعرف على صفوة علمائها ومحاورتهم وتبادل الأشعار والمؤلفات والتقاريظ معهم وتلقى الهدايا الجزيلة كتبا ومالا.

فقد زار المراكز العلمية والتقى بـ 28 من العلماء حددهم بأسمائهم فى كل من القاهرة والأسكندرية واستفاد منهم وأفادهم وزوده بثلاثين من أمهات الكتب فى شتى المعارف العربية الإسلامية، فضلا عن ما اقتناه عن طريق الشراء.

ولقى صاحبنا عناية خاصة من لدن علماء وقضاة وفقهاء تونس الذين التقى بما يربو على الثلاثين منهم واتحفوه بوافر الكتب النفيسة ومدوه ماليا.

وصرح بلقاء 9 من فقهاء وقضاة المغرب الأقصى فى ذهابه وإيابه وما كان له معهم من مذاكرات علمية وتبادل للشعر ولاسيما سيدى عبد الله التادلاوى الذى قرض معه الشعر، وأبو العباس الإيليغى الذى مدح صحبنا بقصيدة، والفقيه مولاى أحمد البلغيثى قاضى الصويره الذى تذاكر معه وأهداه كتابين أحدهما من تأليفه.

ولاشك أن الحظوة الكبيرة التى نالها لدى السلطان عبد العزيز ووزيره الفقيه أحمد بن موسى وقواده المختلفين وما ناله من جم عطائهم جميعا قد مكنه من

---

(1) الرحلة، ص: 114.

اقتناء مزيد من الكتب حتى اصطحب معه إلى الصحراء ثلاثة أحمال من الكتب وسبعة من البضائع المختلفة التى اقتناها من الصويره. غير أن أكثر صلات الرجل فى المغرب كانت مع زوايا الطريقة التجانية.

هـ - التواصل الطرقى: تعتبر الطرق الصوفية عاملا حيويا من عوامل التواصل الثقافى بوجه عام، وفى منطقة شمال غربى افريقيا بوجه خاص.

وتعتبر رحلة الولاتى وما تخللها من حرارة اللقاء مع الزوايا التجانية فى المغرب وما هيجت تلك اللقآت من عواطف شعرية، مظهراً آخر من مظاهر التواصل الثقافى بين ظرفى الصحراء.

فقد كانت الزوايا التجانية فى الرباط وتونس ومراكش والصويره الوجهة التلقائية للولاتى وهو يحل بتلك المدن، ومركز إقامته الطبيعى حيث وجد فى استقباله إخوانا فرحوا بمقدمه وتنازعوا ضيافته وتباروا فى إكرامه وأقبلوا على الإستفادة من معارفه وإفادته ضمن عملية أخذ وعطاء أثمرت روحيا وثقافيا. فتحاور الطرفان وتقارضا الشعر مديحا ومدحا حيث حفز الحوار مع التادلى - مثلا - الولاتى على نظم ثلاث مديحيات فى الرباط وهو ما يزال فى طريقه إلى المدينة المنورة، وحملته حرارة الإستقبال الذى لقيه فى زاوية سيدى ابراهيم الرياحى بتونس على نظم قطعة شعرية يمدح فيها تلك الزاوية وشيخها أحمد التجانى.

وبهذا التواصل الروحى ساهمت رحلة الولاتى فى توطيد الصلات الثقافية بين ضفتى الصحراء. ولم تكن تلك النشاطات الثقافية التى مارسها الرجل طوال رحلته لتشغله عن التأليف ونظم الشعر مادامت بعض أحداثها تدعوه إلى ذلك.

و- التأليف: مارس الولاتى التأليف نظما ونثرا خلال رحلته. فإذا تركنا جانبا فتاويه ومديحياته الكثيرة.

نجده قد ألف أحد عشر تأليفا كاد النظم والنثر يتوزعانها بالتساوى، فقد نظم نظمه المعروف ب: «نخبة الاصطفا فى طهارة المصطفى»، وانساب النبى ﷺ

وأنساب شرفاء تيشيت، ومكفرات الذنوب، وآداب زيارة الروضة الشريفة وأهل البقيع وأهل أحد، ونظم الأجرومية.

أما على الصعيد النثرى، فقد شرح أرجوزته فى أسماء النبى، ومنظومتى «نخبة الاصطفا....» و«مكفرات الذنوب» وتأليفا فى الأذكار، وشرح نظم الأجرومية.

وقد شكلت هذه التأليف، نثرية كانت أو تنظيمية، رافدا من روافد التواصل الثقافى حيث بثها صاحبنا فى الأوساط المزارة إهداء أو مذاكرة أو استنساخا أو غيرها من سبل النشر أنذاك.

ونلاحظ مما تقدم أن عطاء صاحبنا الثقافى كان عطاء كبيرا ومتعدد الوجه، وأنه رد بعض الجميل إلى اصحابه فى وقت كانوا بحاجة إليه. فإذا كان الشناقطة مدينين فيما مضى لإخوانهم فى الطرف الآخر من الصحراء ثقافيا فى مجال المقررات الدراسية والأسانيد العلمية والصوفية، فقد أصبح لهم، منذ نهاية القرن 16، «اكتفاؤهم الذاتى» على الصعيد المعرفى، فنبغوا فى المعارف العربية - الإسلامية وأصبحوا يسعفون من حين لآخر المشرق والمغرب العربيين ببعض معارفهم ولاسيما أثناء رحلاتهم إلى الحج التى كانت فرص التواصل الثقافى الأساسية حينئذ.

وإذا تركنا جانبا ما اضطلع به احمد بابه بن محمد اقيت التينبكتى (ت1627) من دور علمى بالمغرب الأقصى فى ملتقى القرنين 16 و17، وما قام به بعض حجاج القرن 18 [1]، فإن وجوها علمية شنقيطية من حجاج القرن

---

(1) من امثال الحاج الحسن بن آغبدى الزيدى (ت: 1123هـ/ 1711م) الذى استدرك أربعين مسألة على الخرشى فى شرحه لمختصر خليل، ومحمد المجيدرى بن حبيب الله (ت: 1204هـ / 1788م) الذى كان المرتضى الزبيدى وأحمد بن إدريس الفاسى وحمدون بن الحاج ممن أخذوا عنه، ومحمد عبد الله بن الفاضل (ت: 1209هـ/ 1794م) الذى تولى القضاء «بالقاهرة عدة سنوات»، وسيدى عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233هـ/ 1818م) الذى «أخذ عن البنانى وأخذ البنانى عنه»... على حد قول الخليل النحوى (المنارة والرباط).

19 م قد كان لها عطاء معرفى كبير فى مختلف المناطق العربية التى حلت بها. وقد أعطت بوجه خاص دفعا مهما للتواصل الثقافى بين طرفى الصحراء فى وقت تعطلت فيه – أو كادت – المبادلات التجارية بين المنطقتين.

ونكتفى هنا بالإيماء إلى الدور الذى اضطلع به – على هذا الصعيد – علماء بارزون من أمثال بن اطوير الجنة (ت 1848)، والشيخ ماء العينين (ت 1910) ومحمد محمود بن التلاميذ[1] وأحمد بن المين الشنقيطى (ت 1913)... ومحمد يحى الولاتى نفسه الذى افتقناه خلال هذا العرض فى رحلته.

---

(1) لازم ابن التلاميذ (1816 - 1904) اجدود بن اكتوشلى العلوى وتخرج عليه، وأخذ عن ابن الأعمش الجنكى فى تيندوف أثناء رحيله إلى المشرق بعض علوم الحديث.

وقد لعب ابن التلاميذ دورا كبيرا فى التواصل الثقافى بين المشرق والمغرب الإسلاميين فى ملتقى القرنين التاسع عشر والعشرين وذاع صيته كثيرا ولاسيما فى المشرق، وإذا كانت ثقافة الرجل الموسوعية وما كان له من مناظرات علمية وجدل مع علماء المشرق وما يروى عنهم من حدة طبع، قد تكون المسؤولة – إلى حد كبير – عن الشهرة التى نالها؛ فإن خبرته الكبيرة فى مجالات اللغة والأنساب والحديث قد بوأته مكانة علمية مرموقة فى تلك الأصقاع وبهرت معاصريه.

فقد وصفه الزركلى فى «الأعلام» (ج 89/7) بأنه: «علامة عصره فى اللغة والأدب» وعزا النحوى (1986 /270) لمحمد رشيد رضا وصفه لابن التلاميذ ب«العلامة المحدث الذى انتهت إليه رئاسة علوم اللغة والحديث فى هذه الديار المصرية» ولاسيما علم الرواية للحديث الشريف ولأشعار العرب المخضرمين، أما ابن الأمين الشنقيطى الذى كان على خلاف كبير معه فقد قال بأنه «انفرد فى المشرق باللغة والأنساب» (الوسيط : 381).

ولعل تلك المواصفات هى التى جعلت صديقه محمد عبده ينتدبه لتدريس اللغة فى الأزهر بعد إدخاله الدرس اللغوى فى البرامج التعليمية لتلك المؤسسة الثقافية العتيدة، ويروى طه حسين فى كتابه «الأيام» (ص: 343) انطباع كبار طلاب الأزهر عن ذلك العالم الشنقيطى فيقول: «كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبا للشيخ الشنقيطى فى حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب».

لقد كان لمحمد محمود الفضل فى تصحيح العديد من أمهات كتب التراث ولاسيما كتب اللغة والأدب مثل المخصص لابن سيده و«القاموس المحيط» للفيروزابادى وكتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصبهانى... واعتمدت عليه دور النشر فى مصر فى إعدادها للنشر.

وبلغت شهرة ابن التلاميذ العلمية حدا جعل السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى (- 1918 1842) يختاره لرئاسة بعثة علمية إلى الأندلس بحثا عن نوادر الكتب العربية. وجعل أوسكار ملك السويد والنرويج يحرص على أن يكون هذا الشنقيطى ضمن وفد أبناء العرب

غير أنه من حق القارئ أن يتساءل بعد هذه الرحلة الطويلة مع الولاتى عن ما استفاده منها. خاصة وأن مستويات القراءة متعددة وهموم أصحابها متباينة. فالقارئ التاريخى سيخرج بفكرة أساسية مفادها أن استمرار التواصل الثقافى عبر الصحراء وازدهاره غير مرتبطين بالضرورة بمستوى التبادل المادى. فقد عرف التواصل الثقافى فى القرنين الماضيين، ولاسيما فى القرن 19 وبداية القرن العشرين، نموا كبيرا – كما وكيفا – لم يعرفه فى الفترات السابقة للتقلص الكبير فى حجم ونوعية التبادل المادى عبر الصحراء.

ويشكل الشعور العفوى بالترابط الروحى والثقافى لدى سكان المنطقة فى الوقت الحاضر واستمرار وتنوع شبكات التواصل على هذين الصعيدين – رغم تردى مستوى التبادل الاقتصادى فيما بينهم – مصداقا لفرضيتنا.

غير أنه لا ينبغى إصدار حكم قيمى كهذا انطلاقا من قراءة سريعة لأثر واحد من الآثار التاريخية التى تغص بها المنطقة من قبل متطفل على الموضوع. فإصدار حكم نهائى بهذا الشأن يتطلب دراسة متأنية ومتعددة الأبعاد تتضافر فيها جهود ذوى الإختصاص على حافتى الصحراء وتنطلق من قراءة وإعادة قراءة مختلف المصادر الأولية للموضوع بروح علمية تنأى بأصحابها عن شطط التأويلات الإيديولوجية المغرضة والإسقاطات التاريخية المتسرعة؛ وعسانا أن نجد إلى ذلك سبيلا.

الذين طلب من السلطان العثمانى أرسالهم إليه لاستفسارهم «عن أشياء فى القرآن، وعن أشعار العرب».

وإن الدور الذى اضطلع به هذا الرجل فى التواصل الثقافى بين جنوب الصحراء وشمالها لحرى بأن تفرد له دراسة مستقلة.

* قدم هذا البحث مساهمة فى الملتقى الدولى حول مسالك القوافل عبر الصحراء المنظم من قبل مركز إلدراسات التاريخية بالجزائر ما بين 12 - 14 من نوفمبر 1991.

أهم المصادر المراجع

1- ابن بطوط (محمد بن عبد الله) : تحفة النظرا فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار - دار الكتاب اللبنانى، بيروت، د.ن.

2- ابن الحاج ابراهيم (سيدى عبد الله) : صحيحة النقل فى علوية إيدو على وبكرية محمد غلى (مخطوط شخصى).

3- ابن أحمذيه (محمد عبد الله) : الديوان - جمع وتحقيق محمد عبد الله بن حمدى - المدرسة العليا للأساتذة، نواكشوط 1985.

4- ابن حنبل (محمد) الديوان - تحقيق أحمد بن بيات، م. ع. أ. .. 1983.

5- أبن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... دار الكتاب اللبنانى، بيروت، 1968/ ج6.

6- البشير بن امباركى: الرحلة الحجازية - تحقيق محمد امبارك م.ع.أ، نواكشوط 1982.

7- الزركلى (خير الدين) : الأعلام - دار العلم للملايين - بيروت 1979.

8- زمامه (عبد القادر) : «الرحلة المغربية صلة علم حضارة» - مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانى بفاس، عدد 1986/8.

9- الساس بن ابو: جمع وتحقيق الإنتاج الشعرى للعلامة محمد يحى الولاتى - م.ع.أ. نواكشوط 1986.

10- السعدى (عبد الرحمن) : تاريخ السودان - نشر هوداس وبنوه، ط MAISONNEUVE 2 باريس 1981.

11- طه حسين: الأعمال الكاملة - الجزء الأول: الأيام - دار الكتاب اللبنانى، بيروت 1980.

12- مجهول: حوليات ولاته (محفوظ).

13- محمد فال بن بابه: الرحلة - تحقيق محمد فال بن شماد، م.ع.ا. نواكشوط 1982.

14- المقرى (أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب - دار صادر. بيروت 1968/ ج5.

15- النحوى (الخليل): المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافى والجهاد الدينى من خلال الجامعات البدوية اللمتنقلة (المحاضر) - تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987

16- نيقولا زياده: سكان الصحراء الكبرى والسودان الغربى ن ابن حوقل إلى بن بطوطة، مجلة الفكر العربى، العدد 51، السنة 9 يونيو 1988، ص.ص: - 69 49.